هموم عربية معاصرة: قراءة نقدية في ثنائية الشرقاوي المسرحية "ثأر الله: الحسين ثائراً والحسين شهيداً"

عبد المرضي زكريا خالد*

* حصل على الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة عين شمس، عام ١٩٩١م.
يعمل حالياً مدرساً بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، كلية التربية ـ جامعة عين شمس.

الملخص

إذا كانت صلة الأدب بالتاريخ جد وثيقة، لأن التاريخ الإنساني يكشف عن جهود الإنسان، والأدب يفسر تلك الجهود، فإن صلة الأدب المسرحي بالتاريخ أوثق وأعمق، وآية ذلك كله اتكاء الأدباء على التاريخ بوصفه مستودعًا لايفنى ومعينًا لاينضب لموضوعاتهم فضلاً عن أن التاريخ والمسرحية تمثلان جملة من الأحداث التي تتطور في إطار زمني معين بناء على قوانين ثابتة، لتنتهي إلى نهاية حتمية.

ويختلف شكل الارتباط المسرحي بالتاريخ من حيث طبيعته ومستواه، فربما اعتمد المبدع المسرحي على شخصية تاريخية مشهورة لها ثقل اجتماعي أو سياسي أو ديني، وربما اعتمد على حادثة ما من حوادث التاريخ.

ومسرحية الشرقاوي (ثأر الله بجزأيها: الحسين ثائرًا والحسين شهيدًا) نموذج فني أدبي، إذ من خلال القراءة النقدية للمسرحية سنرى أن الشرقاوي قد عوَّل على شخصية إسلامية بارزة من شخوص القرن الأول الهجري «شخصية الحسين بن علي» ليسقط عليها هموم عالمنا العربي ومشكلاته، أو لنقل تخيّر الشرقاوي من بين شخوص التاريخ المتعددة شخصية بارزة تحمل قضايا وموضوعات وإشكالات تشبه في جوهرها إشكالات وقضايا عربية معاصرة، لأنه يعقد صلة وثيقة بين ماضينا التليد وحاضرنا الآني، وأظن أنه بهذا لابغيره تصبح الشخصية التاريخية أو الحادثة أو هما معًا بمثابة المعادل الموضوعي لتجربة المبدع يبث من خلالها خواطره وأفكاره وقضاياه، بطريقة رمزية لايعجز المرسل إليه عن ربط موضوع الرسالة بالواقع المعاصر ومعطياته في شكل أسئلة تتصل بالسلطة والحكم والعدل والحرية والالتزام، وتكفي الإشارة هنا إلى صوت الحسين المدوي في آخر المسرحية «الحسين شهيدًا». فلا شك أنه لسان حال المؤلف نفسه إذ لم يهتم الشرقاوي بالفساد الذي استشرى في عهد يزيد ابن معاوية قدر اهتمامه بتنبيه أذهاننا نحن إلى هؤلاء الذين تسببوا في هذا الظلم وذلك الفساد، فليست العبرة في قتل الحسين (رمز الحق المدوي بيننا) بل تكمن العبرة فيمن قتل الحسين، ولماذا قتل؟

مما لاشك فيه أنه لكي يصبح الأدب المسرحي فنا أخلاقيًا معبرًا عن المتطلبات الاجتماعية والسياسية والفكرية لأفراد أمة ما من الأمم، فإن عليه بالضرورة أن يشجع ـ من خلال إبداعات مبدعيه ـ على الأفكار التي تمثل القيم والمثل، كالعدل والحرية وتكريم العقل الإنساني والتضامن الاجتماعي. . . وغير ذلك من قيم عليا، ومثل نبيلة، ويلح في الدعوة إليها، وفي الوقت نفسه يندد بأضدادها.

وسنرى أن عبد الرحمن الشرقاوي في مسرحيته الشعرية ثأر الله[١] بجزأيها، الحسين ثائرًا، والحسين شهيدًا - يمثل دعوة ملحة - من خلال شخصية الحسين ابن علي رضي الله عنه، وهو شخصية إسلامية من الطراز الأول دون أدنى منازع - إلى ضرورة التمسك بالفضائل والتضحية من أجلها، وشجب الرذائل والتنديد بها، ولعلنا نلمح من إهداء الشرقاوي هدفه المنشود من هذه المسرحية، إذ يصدرها بقوله:

«إلى ذكرى أمي التي علمتني منذ طفولتي أن أحب الحسين، ذلك الحب الحزين الذي يخالطه الإعجاب والإكبار والشجن، ويثير في النفس أسى غامضًا، وحنينًا فارقًا إلى العدل والحرية والإخاء وأحلام الخلاص»[٢].

فواضح من إهداء الشرقاوي أن هدفه المنشود من هذه المسرحية ذلك الحنين الفارق إلى قيم عليا ومثل نبيلة تتمثل في العدل والحرية والإخاء وأحلام الخلاص كما سبق، ولهذا تظهر شخصية الحسين البطل طوال المسرحية داعية إلى تحقيق هذه الأهداف النبيلة ولو كلفها ذلك حياتها.

وتدور أحداث المسرحية حول أروع بطولة عرفها التاريخ الإنساني كله، إذ ترجع كما هو معروف إلى زمن الدولة الأموية إبان خلافة يزيد بن معاوية ٦٨٠ ـ ٦٨٣ م، ذلك الزمن الذي تحدثنا عنه كتب التاريخ الإسلامي بأنه زمن تصاعد البطش الأموي من أجل تأسيس نظام الحكم الوراثي، إذ في عهد معاوية وابنه يزيد خاصة «ضاع معنى الخلافة التي سار عليها الخلفاء الراشدون، كما ضاع معنى العدل الذي تشدد الإسلام في العمل والتعامل به، وأصبح الأمر سياسة حسبما تتطلبه الأغلبية، لاعدلا حسبما يتطلبه الإسلام على حد تعبير الأستاذ أحمد أمين»[٣].

وقد أدت ممارسات الأمويين - كنتيجة حتمية - إلى المواجهة المحتدمة العنيفة بين ورثة معاوية، والحسين بن علي وشيعته وانتهى الأمر بمقتل الحسين بن علي عندما خرج لمقاومة يزيد، وعد قتله: «فاتحة شر كبير على الإسلام، فقد قسم المسلمين: شيعة يلتهبون عاطفة لأهل البيت، وسنية يرونهم خارجين على سياستهم يستحقون عليها التأديب والقتل، وبكى المسلمون الحسين ولايزالون يبكونه ويتألمون لفجيعته إلى اليوم، وتعقد الشيعة في العاشر من المحرم اجتماعات مؤثرة، فيضربون بأيديهم وبالسلاسل، ويشجون رؤوسهم بالحديد، فيهلك بعضهم.. وحسبك دليلاً على شدة هذا الصراع أن الأمويين قتلوا في عهدهم ستة وثلاثين من أهل البيت»[٤].

وجوهر قصة استشهاد الحسين يمثل في حياتنا المعاصرة مشكلة الحياة الكبرى، إذ لاتزال الحرب دائرة على أشدها بين أهل الدين وأهل الدنيا، بين خدام عقائدهم ومثلهم وخدام مصالحهم الخاصة، مما يستوجب الكثير من دماء الشهداء، أو كما يقول الأستاذ عباس العقاد في مقدمة كتابه «الحسين أبو الشهداء»: مسكينة هذه الإنسانية لاتزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة»[٥].

ومن أجل مصلحة الإنسانية لابد أن يعمل كل فرد من أفرادها، ولابد أن تهون الشهادة، وأن يتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء، إذ لا بقاء للإنسانية بغير العمل لها، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته، بل حياته في سبيلها كما ذكر الأستاذ العقاد[٦].

ويلتقي رأي الأستاذ العقاد وما قرره المرحوم أحمد أمين[٧]، إذ يرى أن من أهم أسباب ضعف المسلمين بخلهم عن التضحية، وهم يريدون النصر من غير إنفاق، ويعز عليهم الإنفاق، لأنهم يئسوا من النصر أمام العدو القاهر، وشحوا بالمال في أن يبذل في هذا السبيل، وإن كانوا أشحاء بالمال فهم بنفوسهم أشح،

وقد استشهد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها. قال قائل: ومن قلة يومئذ؟ قال صلى الله عليه وسلم: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا: يارسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[٨].

وبعد هذه النظرة الشاملة، والوصف الموجز السريع الذي يعد نقطة ارتكاز يأتي التفصيل والتوسع لتحليل شخصية البطل في المسرحية - الحسين - بوصفها أنموذجا واضحًا للشخصية الإسلامية بكل مقوماتها وملامحها.

شخصية الحسين المسرحية

بين الواقع التاريخي والرمز المعاصر

ليس من شك في أن مقتل الحسين كان من الأسباب الجوهرية في ظهور أدب الشيعة، وأدب الشيعة كما هو معلوم من تاريخ أدبنا العربي كان ولايزال أدبا غزيرًا، ومرد ذلك: «أن عاطفة الشيعة كانت عاطفة جياشة، والعاطفة دعامة أساسية من دعائم الأدب، وكان للشيعة عاطفتان: عاطفة الغضب، وعاطفة الحزن، وهما عاطفتان قويتان يرجع إليهما النتاج الأدبي الشيعي»[٩].

ولايتسع المقام هنا للحديث عن النتاج الأدبي الشيعي، ولاعن أثر فجيعة الحسين في ظهور التعازي الشيعية، إذ ظهرت ولاتزال حتى اليوم القصائد الباكية، والخطب الحماسية الرائعة، والأقوال الدامية، وكان كل ذلك كما ذكر الأستاذ أحمد أمين[١٠] «صدى للدماء المسفوحة، والجثث المطروحة، وكانت ذكراها - حادثة الحسين - تبعث في كل جيل حزنًا، فيبعث الحزن أدبًا، ولم تغن حركة النتاج الأدبي الشيعي من الناحية العقلية فحسب، بل أثرت أيضًا على الناحية السياسية والعاطفية، فظلوا يقولون في الحق وطلبه، والإرث وغصبه، ثم يبكون على حق ضاع، ودم أريق، وحرمات انتهكت، وبيوت دمرت، وجثث صلبت وذريت».

وفي مجال الأدب المسرحي أثرت حادثة مقتل الحسين في ظهور لون من المسرحيات سميت «بالتعازي»[١١] وقد كتبها عدة كتاب مجهولين، ولانزال حتى اليوم نجد في الأيام التي تسبق أول المحرم، في الجوامع والتكيات، وفي الساحات العامة وفي بعض المنازل، ومن على المنابر تقف شخصيات دينية إسلامية، لتروي أحداث الحسين وبطولته وتشيد بمناقبه.

كانت هذه توطئة تاريخية يزعم الباحث أنه لامحيص عنها لما ترشد إليه قصة استشهاد الحسين من حقائق وعظات كانت سببا في اغتراف الشيعة من معينها، وقد سبق أن أشرت إلى أن هذه الحادثة تبعث في كل جيل حزنًا فيبعث الحزن أدبًا، وقد بعثت قصة الحسين حزن الشرقاوي فأنتج الحزن أدب الشرقاوي المسرحي فاحتل رقعة واسعة من دائرة إبداعه المسرحي متمثلاً في «ثأر الله بجزأيها: الحسين ثائرًا، والحسين شهيدًا» فكيف صور الشرقاوي شخصية الحسين الإسلامية ورسم ملامحها وأبرز تعاريجها النفسية؟ وعلام ترمز هذه الشخصية التاريخية الإسلامية في واقعنا المعاصر.. وغير ذلك من تساؤلات عديدة؟ هذا ما أحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية.

تدور **الفكرة الأساسية للمسرحية** حول التضحية والاستشهاد من أجل فكرة معينة يعتنقها ويؤمن بها، أو الموت في سبيل شرف الكلمة، فمعلوم من أحداث التاريخ الإسلامي أن الحسين كان بوسعه أن ينجو وشيعته إذا ما نطق بالمبايعة ليزيد بن معاوية، أو حتى التزم الصمت لكن الكلمة موقف وحياة، فقد التزم الحسين بكلمته، لا من أجل مصلحة دنيوية شخصية، وإنما ليكشف الأوضاع المتردية القهرية التي انغمس فيها الأمويون، فأشهر كلمة الحق في مواجهة الظلم والفساد الذي خرب النفوس، وأفسد الذمم، ولهذا كله عالجت مسرحيتا الشرقاوي «الحسين ثائرًا والحسين شهيدًا» حرية الكلمة مستخلصة من واقعة رفض الحسين إعطاء البيعة ليزيد بن معاوية سنة ٦٠ هـ واستشهاده في كربلاء عندما اتجه للكوفة تلبية لرغبة أهلها ومكاتباتهم له من أجل إنقاذهم من يزيد وعماله.

ومما تقدم نقترب من أبعاد شخصية الحسين الإسلامية، وأول مايلحظه الباحث أن ثنائية الشرقاوي «الحسين ثائرًا والحسين شهيدًا»، قد أغفلت البعد الجسمي لشخصية الحسين، فلا نكاد نعثر على شيء من سمات شخصيته الجسدية منذ بداية إعطاء البيعة ليزيد حتى استشهاده في كربلاء.

ولئن أغفل الشرقاوي البعد الجسمي لشخصية الحسين فإنه قد رسم بوضوح بقية الأبعاد الأخرى: الفكرية والعقدية والنفسية والاجتماعية، وأبرز مقومات هذه الشخصية الإسلامية القوية، وصور جوانب شخصية الحسين الإسلامية فجعلها شخصية شامخة عالية، تحمل كلمتها ضد السيف، وإن كلفها ذلك حياتها ثمنا لهذه الكلمة، الأمر الذي نبتت معه فكرة الصراع المسيطرة على المسرحية، ومؤدى هذه الفكرة أن الخلافة إمامة وليست وراثة، وفي ضوء هذه الفكرة صدرت أفعال الحسين وسلوكه دونما أي تردد، وعضدت بعض الشخصيات الثانوية شخصية الحسين في سلوكه وأفعاله «لقد استخدم الشرقاوي المجردات وجسمها، والمجردات هنا تعني الفضائل والقيم والحب والرذائل بمفهوم ديني غير نفعي»[١٢] ومعروف أن التجاور بين التضادات مما يساعد على إبراز المعنى، ووضوح الدلالة، وكأن الشرقاوي بجمعه لهذه المتضادات أراد أن يظهر سلبية العصر والزمن الذي سبقت فيه هذه الأحداث المؤسفة، وفي هذا ما يمكن من القول بأن الإطار التاريخي الذي يمثل هذه المأساة والذي عمد الشرقاوي إلى اختياره يعد معادلًا موضوعيًا لقضية معاصرة في عالمنا العربي الإسلامي هي قضية العدالة والحرية في مواجهة قوى الظلم والقهر والاستبداد، ويتفق هذا الرأي مع ما قرره أستاذنا الدكتور عز الدين إسماعيل[١٣] من أن اختيار الكاتب للنموذج التاريخي يكون غالبًا موجهًا لما يتراءى له من مغزى ينعكس على الحاضر ويضيؤه، وكلام الدكتور عز الدين صحيح جدا، إذ من اليسير ملاحظة أن كل من تلمس التراث ووظفه بوعي وعمق قد سعى جاهدًا لإسقاط هذا التراث على أرضية الواقع المعاصر (الحاضر) الراهن، ليرى من خلاله تلك القيم والأفكار التي يدعو إليها بإلحاح، وهي قيم ضائعة في عالم الكاتب المعاصر، مثلما فعل الحكيم في مسرحه الذهني، وباكثير في رؤيته الإسلامية، وعبد الصبور بكل ما تضمنه مسرحه من قضايا فنية ومعنوية.. وسواهم كثير.

شخصية الحسين في بقية أبعادها التي رسمها الشرقاوي وأبرز تعاريجها النفسية والعقدية شخصية إسلامية من الطراز الأول، إذ إنها لاتعرف للحق سوى طريق واحد، وهي شخصية متزنة متحدة المواقف غير مترددة، لاتستجيب لتغير الظروف والمواقف والملابسات، صادقة مع نفسها ومع غيرها، واضحة صريحة، لذا جاءت كلمته واحدة محددة لاتقبل المناورة أو الخداع، جاءت أقوال الحسين - بطل المسرحية بجزأيها - من ثم متناسقة ومتزنة، ولا أدل على ذلك من مثل هذه المواقف الكثيرة التي تحتشد بها المسرحية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولا: موقفه الصارم في رفض الدعوة ليزيد بن معاوية عندما جاءه الوليد بدهائه السياسي، وأراد أخذ البيعة من الحسين سرًا، لنقرأ هذا الحوار بين الحسين، والوليد بن عتبة حول أخذ البيعة ليزيد سرًا.

الوليد: أنت مدعو إلى البيعة بالحسنى فبايع ليزيد.

الحسين: أنا أعطي بيعتي سرًا؟ أمثلي يعقد البيعة سرا؟
لاورب البيت.
بل تخرج للناس فتدعوني إلى البيعة جهرًا.
فتقولون لماذا تجعلون الأمر إرثًا...؟[١٤].

ونلمس صرامة الحسين بن علي في رفضه إعطاء البيعة ليزيد قسرًا، وذلك في حواره مع مروان بن الحكم (صاحب بيت المال بالمدينة).

الحسين: .....
أتريد البيعة مني قسرا؟
ضعف الطالب والمطلوب.
إن قام الأمر على الإرهاب أو الطغيان أو البغي
فالغالب فيه مغلوب[١٥].

ويتضح موقف الحسين الحازم والصريح عندما تودد إليه الوليد، والوليد كما تدل أحداث المسرحية معروف بدهائه السياسي وقد حاول إقناع الحسين بأن

البيعة ليزيد تضمن له ماله، بل يزداد له في العطاء، ويتجنب المخاطر ولظى الفتن، ويعيش حياة آمنة، فنجد موقف الحسين الحازم.

الحسين: (مقاطعا) مالي وللحرص اللعين.
الحرص ينقص قيمة الإنسان.
لكن لايزيد عليه حظه.
كالخوف يهدر عزة الرجل الأبي.
ولايضيف لعمره المقدور لحظة(١٦).

ثانيًا: كلمته واحدة ثابتة محددة في كافة الظروف والملابسات، إذ إنه يدرك ماهية الكلمة ومغزاها، ولذا يرفض أي تهديد في سبيل كلمته، والكلمة سلاح الحسين في مواجهة السيف، فعندما يذكره الوليد بأنه لا يطلب سوى كلمة يرفض وعندما يخاطبه ابن مروان بغلظة: فقل الكلمة واذهب عنا، يكون رفض الحسين في شجاعة الأبطال.

الحسين: (منتفضا) كبرت كلمة.
وهل البيعة إلا كلمة.
مادين المرء سوى كلمة.
ما شرف الرجل سوى كلمة.
ما شرف الله سوى كلمة.

وفي رده على ابن مروان، يقول الحسين:

الحسين: أتعرف ما معنى الكلمة؟
مفتاح الجنة في كلمة.
دخول النار على كلمة.
وقضاء الله هو الكلمة.
الكلمة لو تعرف حرمة.
زاد مذخور.
الكلمة نور.
وبعض الكلمات قبور(١٧).

ثالثًا: والحسين كشخصية إسلامية يغضب فحسب لما يغضب الله تعالى، ويبرز الشرقاوي هذا الجانب العقدي في شخصيته، فنراه يرد على الوليد في غضب شديد عندما ينصح الوليد بقتل الحسين وبالبحث عن آية في ذلك يقول الوليد:

اقتله بقول الله تعالى.
ابحث عن آية.
اقتله بقول رسول الله.
فيمن خرج على الإجماع.

الحسين: أتقتلني يا ابن الزرقاء بقول جدي فيمن نافق؟
أتزيف في كلمات رسول الله أمامي يا أحمق؟
أتقتلني يا شر الخلق.
أتؤول في كلمات الله لتجعلها سوط عذاب.
تشرعه فوق امرىء صدق[١٨].

فواضح هنا أن غضب الحسين مرده إلى التزييف في كلمات الله تعالى، وتأويل أقوال رسوله صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي جعله يصف خصمه بالتزييف والحمق والغباء، بل يجعلهم من شر خلق الله تعالى.

رابعًا: إعلان الحسين في حزم مضيه قدمًا إلى العراق لا محالة، وذلك رغمًا من تحذير ابن جعفر وآخرين له ونصيحته بترك النساء والعيال إلا أن الحسين يأبى ذلك، ومثل ذلك موقفه من محمد بن الحنفية (أخي الحسين من أبيه)، ويتكرر هذا الموقف مرارًا عندما يصر الحسين على موقفه الأبي الشجاع وعندما يتأكد لديه أن أشياعه في الكوفة قد مالوا ضده لايكون إلا الإصرار على دخولها رغم ما يتهدده من مخاطر قاتلة، وكل هذه المواقف داخل النص المسرحي تبرز سمة من أهم سمات الحسين بن علي هي سمة الشجاعة، وشجاعة الحسين كما يقول الأستاذ العقاد[١٩]: «صفة لاتستغرب منه لأنها الشيء من معدنه، وهي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده وقد شهد الحروب في إفريقية الشمالية

وطبرستان والقسطنطينية وحضر مع أبيه وقائعه جميعًا من الجمل إلى صفين، وليس في بني الإنسان من هو أشجع قلبًا ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في كربلاء».

هذا، وقد شهد أعداء الحسين له قبل أصدقائه، فلم يعيبوا له عملًا، كما لم ينكروا له فضلًا، ولا أدل على ذلك من كلام «شمر بن ذي الجوشن» ذلك الأبرص الكريه الذي يكره الحسين ويمقته مقتًا شديدًا، إذ يقول وهو يتقدم إلى يزيد مختالًا:

(إملا ركابي فضة وذهبا)
(إني ذبحت السيد المهذبا)
(قتلت خير الناس أما وأبا)
(وأكرم الناس جميعًا حسبا)[٢٠]

وهكذا نجد شمر، وهو ألد أعداء الحسين، يذكر فضل الحسين ومحاسنه، فهو السيد المهذب الرقيق، وهو خير الناس توارث الصفات الحسنة الطيبة عن آبائه، فهو كريم أصيل حسيب، الأمر الذي جعل يزيد بن معاوية يعتبر هذه الأبيات مدحًا للحسين بن علي لاهجاء له، مما أدى إلى طرده لشمر بن ذي الجوشن.

ومن خلال ما تقدم نتبين شخصية الحسين المسرحية، ونلمس من الجمل الحوارية في المشاهد السابقة سمات هذه الشخصية، ومن سمات شخصية الحسين المسرحية التي يمكن إضافتها إلى سمة الشجاعة والحزم والحسم، والثبات على المبدأ، وصفة الجود والكرم، وهي - بلا ريب - من أنبل الصفات الإنسانية، ولا أدل على هذه الصفة من توزيعه ما يملك من ماء رغم قيظ الحر على الجنود القادمين لحصاره ومواجهته وقد وقفوا منه موقفًا عدائيًا فأنكروا له الجميل ومنعوه من ورد الماء، ولم يستجيبوا لأصوات المستغيثين: العطش. . . العطش، بل علق شمر بن ذي الجوشن على تلك الأصوات بقوله:

قسمًا بالله لن يشرب منكم واحد حتى يذوق الموت غصة[٢١].

ومن سمات شخصية الحسين المسرحية كذلك رفضه الدائم لانتهاز فرصة الانقضاض على أعدائه أكثر من مرة، لأنه يصدر في سلوكه وأفعاله عن حكمة مؤداها أنه لايبدأ أحدًا بقتال، مكتفيًا في ذلك باستنهاض النخوة والكرامة والروح الدينية في صفوف قاتليه، من ذلك ما ورد على لسان الحسين في مسرحية «الحسين ثائرًا» حيث نجده يحث ابن الحكم على العطف على الفقراء، ويذكره بأن كل من في هذه الدنيا فقير.

الحسين: أنا ماض (يسرع)
طال والله انتظار الفقراء الصالحين.

ابن الحكم: لعنة الله عليهم هؤلاء الفقراء الكالحين.

الحسين: كل من في هذه الدنيا فقير.
كلنا حتى الكبار.
فكبار القوم قد ينقصهم.
شيء.. يذلون له يا ابن الحكم[٢٢].

ومن ذلك أيضًا حثه لابن الحكم (صاحب بيت المال)، أي بيت مال المسلمين جميعًا، ومن ثم فهو ملك لهم، لكل فيه حق مستحق، وهو في الوقت نفسه دين ثقيل في العنق يوم القيامة، ولذا فإن الحاكم مطالب في توزيعه بالتزام العدل، فإذا لم يعدل فإنه آثم[٢٠]، ولايختلف هذا الموقف - مع مروان بن الحكم - عنه مع أسد وهو شيخ حجازي كما تدلنا أحداث المسرحية «الحسين ثائرًا» يعيش في الكوفة، وقد نصح الحسين بن علي بالمبايعة ليزيد حقنا للدماء، ولنقرأ هذا الحوار:

الحسين: ياشريف القوم قد بايعت بالأمس يزيدًا
فأجبني.. هل تحبه؟
أو ترضاه أمير المؤمنين؟

أسد: (محرجا متلعثما) أنا...؟ لا... لكنها
يا ربما كانت هي الحكمة.. حقنا للدماء

الحسين: أنت ذا تصنع شيئًا لا تحبه
أكثر الناس ضلالاً عارفًا بالله لايهديه قلبه[٢٣].

وتأسيسًا على ما تقدم يتضح أن الحسين بن علي يستنهض النخوة والكرامة، ويسعى جاهدًا إلى التذكير بروح الدين وجوهره في صفوف مواجهيه وقاتليه، وهكذا يصبح سلاح الحسين الكلمة في مواجهة السيف، لكنه سلاح لايجدي نفعًا في مواجهة قوى الشر والطغيان، فأعداء الحسين مدججون بالسلاح والذهب والسلطان ونفوس الناس ضعيفة مريضة، ويحكي العقاد[٢٤] أن الحسين وهو في طريقه إلى الكوفة - يوم دعاه شيعته إليها - كان يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بني أمية، وقلما اختلفوا في الجواب، إذ أجابه الفرزدق ـ وهو مشهور بالتشيع لآل البيت ـ بقوله: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء»، وقال مجمع بن عبيد العامري: «أما أشراف الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك».

وقد صور الشرقاوي في «ثأر الله» ما آل إليه أمر الناس في عهد معاوية وابنه يزيد أبلغ تصوير، وقد زخرت المسرحية بجزأيها بمشاهد حوارية عديدة تبرز هذه المعاني بجلاء لايحتاج إلى توضيح، من ذلك: حديث زينب مع الحسين.

زينب: كل ما صار له شيء من المال هو الآن عدوك
أم ترى تحرمهم من كل ما يمنحهم عزة الدنيا
وجاه الكبرياء
وافانين متاع كالخيال
بعدما قد سلموا من أجله أثمن ما عند الرجال[٢٥]

ولهذا وغيره نراها تخشى على الحسين من انتفاض الرفيق، وغدر الصديق.

هذا، ويبرز المنظر العاشر من مسرحية «الحسين ثائرًا» ما آل إليه أمر الناس من صراع بين الدين والدنيا واضطراب الناس وحيرتهم في الاختيار والمفاضلة، إذ يبدأ المنظر العاشر بلوحة فنية يعرض الحوار فيها ما يدل على انقسام في الرأي بين

شابين وأمهما، أحدهما يرى في مناصرة الحسين وأتباعه (مسلم بن عقيل، ابن عم الحسين) ما يقرب إلى الله تعالى ورضوانه، بينما يرى الثاني وأمه أن في مناصرة الحسين ما يسبب الثكل والقتل، ولذا ينصحان بالابتعاد عن مؤازرة الحسين وأتباعه. ويصل الاضطراب والحيرة مداهما عندما يرى بعض الناس - خاصة الشيوخ - أن المقهور لا إثم عليه ولا جناح، يقول أحد الشيوخ:

نحن مقهورون.
والمقهور لا إثم عليه ولاجناح[٢٦].

وهذا شيخ آخر يقول:

ماعلى المقهور والله جناح
أو عقاب[٢٧]

ولعل في اختيار الشرقاوي لشخصية الشيخين واضطرابهما ومحاولتهما البحث عن مخرج وتبرير مساندة يزيد بن معاوية لعله بذلك يعرض أن أمر الرشوة، وإغراء يزيد وأتباعه للناس بالمال قد فتن حتى الشيوخ الذين راحوا يتلمسون ويبررون أن المقهور لا تثريب عليه ولاجناح ولا عقاب، وإذا كان هذا حال الشيوخ، وهم أهل الدين فما بالنا بعامة الناس.

وحوار أحد التجار مع المختار الثقفي (ثائر من الكوفة وكان من أشد المطالبين بالثأر للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه) خير دليل على ترجيح التاجر للحياة الدنيا على الآخرة، فقد غره (التاجر) المال، فأخذ يقارن بين ثراء ابن زياد، وفقر مسلم بن عقيل إلى أن توصل إلى فلسفة يسأل الناس فيها:

التاجر: مع من أمشي بحق الله قولوا يا جماعة؟
أفأمشي مع من يأخذ منا للجهاد؟
أم وراء المغدق الرزق علينا ابن زياد؟[٢٨].

وهكذا، خربت النفوس، وفسدت الذمم، وتفرق الناس فيما بينهم خوفا على حياتهم ومصالحهم الدنيوية، واقتناصًا لفرص الحياة المادية التي أغراهم بها

سلاطين الدولة الأموية، والمسرحية في مضمونها صورة رمزية للواقع المصري المعاصر الذي كتبت فيه سنة ١٩٦٩م. فقد أبرز الشرقاوي أساليب الحكم، وقهر الأمة ولهذا «انخرط الشرقاوي في سلك المقاومة السلبية، وأخرج عمله المسرحي الشعري التسجيلي الثالث، ولكنه فضل - إيثارًا للسلامة من عنف العصر الأسود - أن يتخفى في ثياب التاريخ الإسلامي منتقيًا أسلوب الشعر المسرحي»[٢٩].

ولم يغفل الشرقاوي رسم صورة لسمات العصر الذي عاش فيه البطل - الحسين بن علي - فانطلق الحسين بجمل حوارية غاية في الروعة والجمال تصور بدقة ما آل إليه الأمر في عصر يزيد بن معاوية ووالده:

الحسين: . . . . . .
أصبح الخير طريدًا يتوارى في الخرق
وغدا الحق شريدًا
يَدُرْ بِهِ البغي من أفق لأفق.
والدنايا تزدهي بالطيلسان.
فإذا الباطل فوق العرش وحده.
في يديه الصولجان.
ملكه الزيف وأسراه الدموع
تنحني من دونه كل الفضائل.
. . . . . .
عندما تقتحم الحدأة أسراب الحمام.
عندما يغشى ركام الرمل أكناف الربيع.
عندما تصبح دنياكم نفاقا ورياء ونعيما من جنون.
عندما يصبح ذل الخوف سلطان القلوب
فإذا الإنسان يستخفى بتقواه بعيدًا
ويباهي بالذنوب
. . . . . .

عندما يعلو على همس التقيات النقيات.
صراخ الفاجرات.
عند هذا تفتقد البهجة معناها النَّبيل.
عندما يصبح للزيف وللبهتان دولة
عندما تتخذ الحكمة معناها من الإذعان كي تصبح ذلة.
عندما يختلط الظل مع النور ويعلو الزور أعراف النبالة.
عندما تضطرب الدنيا فلا ندرك فرقا بين حمق وبسالة.
عندما يصبح للإرهاب سلطان على النفس الأبية.
حين تغدو دولة الكذَّاب والقراد.
لايعلو بها صوت سوى صوت المنافق.
عندما تفترس الدولة مَنْ ينقدها
عندما تنتهك الدولة من يسندها.
عند هذا ما انتفاعي بوجود لن أطيقه؟!!
آه ما أهون دنياكم على طفل الحقيقة.(٣٠).

وهكذا، رسم الشرقاوي على لسان بطل مسرحيته «الحسين بن علي» صورة كاملة لسمات عصره، وهو عصر متهالك في كل قيمة من قيمه، أصبح جل رجاله مغلفين بقناع هو «النفاق»، الأمر الذي جعل الحسين ورجاله ينظرون إلى هذا العصر بوصفه رمزًا للعفن والفساد في كل شيء، وهذه أمور لايجب السكوت عليها بل تجب مواجهتها حتى النهاية دون أدنى مهادنة، ولا عجب في أمر المنافقين فقد كان الحاكم (يزيد بن معاوية) وأتباعه يأمرون الناس بالنفاق، من ذلك ما ورد على لسان ابن زياد:

ابن زياد: العاقل منكم من نافقني.
المجرم فيكم من جابهني.
الأحمق من أضمر بغضي.
وأسر النجوى كي يطعن في عرض أبي أو في عرضي.

فعيوني تسعى بينكم.
وجواسيسي يستقصون دبيب الهمسة في الأعماق.
وسآخذكم بنواياكم بالأفكار المكتوبة.
لا بالأعمال المعلومة.
بالخلجات وبالخفقات وهمس الهمس.
فالفائز فيكم من صانعني حتى في خلوات النفس[٣١].

ومن خلال ما تقدم يلحظ الباحث أنه على الرغم من إغفال البعد الجسمي من أبعاد شخصية البطل - الحسين - إلا أن الشرقاوي قد أبرز بقية جوانب شخصيته الإسلامية في جلاء ووضوح وظهر ذلك واضحًا من خلال إبراز فكرة الصراع التي تضمنتها مسرحيتا الشرقاوي - الحسين ثائرًا والحسين شهيدًا - والتي مؤداها كما سبقت الإشارة أن الخلافة إمامة لا وراثة، وينبغي أن تكون هكذا، ومن ثم جاءت فكرة المسرحية الأساسية: التضحية والاستشهاد من أجل المبدأ الذي آمن به بطل المسرحية واعتناقه لهذا المبدأ، أو الموت، في سبيل شرف الكلمة، ولايخفى أن شخصية الحسين كما تتضح من سياق النص المسرحي كانت غايتها في طلب الخلافة دفع المظلمة وجلب المصلحة للناس، ولذا كان طلب الشهادة في سبيل هذه الأهداف أمرًا سهل المنال، ومن ثم فإني أزعم أن رفعت سلام في دراسته «المسرح الشعري العربي»[٣٢] قد جانب الصواب عندما تصور في سياق حديثه عن شخصية الحسين بن علي أنها شخصية كانت مندفعة إلى الانتحارية وأنها شخصية تجريدية لا إنسانية تتخطى حدود الأنبياء، حتى وإن كانت تدافع عن الحق الإنساني، إلا أنها منفصلة عن أي قانون إنساني، وأي ممارسات إنسانية، يمكن أن تكون نموذجًا ومثلاً، وذلك هو سر مصرعه على حد تعبير رفعت سلام، وهذا كلام مجانب للصواب، إذ إن شخصية الحسين في الواقع التاريخي شخصية حقيقية لاتجريدية، وفي الواقع المعاصر نراها شخصية رمزية موجهة لما يتراءى للشرقاوي من أفكار وقضايا لها مغزاها العميق في عالمنا الحاضر بما فيه من هموم وقضايا مرتبطة بصلاح أمته ورغبته الأكيدة وحنينه الفارق إلى العدل والحرية والإخاء وأحلام الخلاص، ولئن أخفق الحسين في نهاية المطاف

ونجح يزيد بن معاوية كما يتصور أصحاب المنافع الدنيوية، فإن يزيد وأتباعه قد خسروا كل شيء في دنياهم وأخراهم، فقد تقوضت دولة الأمويين وخلفائهم في فترة واهية.

ولئن كانت شخصية الحسين هي الشخصية الإسلامية البارزة الملامح والسمات، فإن ثمة شخصيات إسلامية ثانوية أخرى قد ساندتها، وضحت بنفسها في سبيل مبدئه وشرف كلمته من هؤلاء:

أ - بشر، وهو من فتيان بني هاشم.

ب - سعيد بن سعيد، من العراق وهو من أصحاب الحسين بن علي.

جـ - ابن جعفر: ابن عم الحسين وزوج شقيقته، زينب، وقد نصح الحسين بضرورة الاتجاه إلى اليمن ففي اليمن شيعة مخلصون، وكرر الدعوة والنصح للحسين، وذلك بأن أرسل له خطابًا يتضمن هذا المعنى، وهو في طريقه إلى الكوفة(٣٣).

د - مسلم بن عقيل: ابن عم الحسين، والذي مثل الساعد الأيمن للحسين ابن علي في مأساته.. وغيرهم كثير من أمثال: هانىء بن عروة الذي اتسمت شخصيته بأخلاق الفروسية والوفاء والشجاعة، فقد آوى مسلمًا في داره ولم يعبأ بتهديد ابن زياد له، ومن أهل العراق «شريك» وهو شيخ عراقي، وزيد بن أرقم، والمختار الثقفي الثائر الذي كان من أشد المطالبين بالثأر للإمام علي كرم الله وجه.

وقد اتسمت هذه الشخصيات الإسلامية الثانوية في المسرحية بجزأيها - الحسين ثائرًا والحسين شهيدًا - بجملة من الخصائص المشتركة مثل: الشجاعة، والمروءة، الوضوح، والصدق، واللين، وحسن الخلق، ورعاية حقوق الغير، والمواجهة، والإيجابية، وقول الحق، ونصرة المظلوم، والتضحية بالنفس والمال... وغير ذلك، ولذا بدت هذه الشخصيات متشابهة فيما بينها إلى حد كبير. وقد نجح الشرقاوي في ذلك فجعل الشخصيات الثانوية تتبنى موقفًا فكريًا مشتركًا(٣٤)، غير أنه لايجوز أن ننخدع كما انخدع رفعت سلام(٣٥) بجملة

السمات العامة والصفات المشتركة لأنصار الحسين بن علي فعمم الكلام، وجعل أعضاء جماعة المقاومة التي يقودها الفتى مهران في مسرحية الفتى مهران للشرقاوي تشبه إلى حد كبير جماعة الحسين، ووصف جماعة الحسين بالسلبية وأنهم انساقوا وراء الحسين بن علي، وأضاف يقول: «وتذوب الشخصيات - يقصد الشخصيات الثانوية - في شخصية الزعيم الطاغية التي توجه مسيرتها وتسوقها سوقًا إلى الأزمة. . . فالزعيم الملهم الذي ينطق بالحكم والتعليمات التي لايشوبها الباطل والشخصيات الأخرى تنساق وراء الزعيم انسياقًا أعمى، فهم تابعون له، دون درجة من الاستقلالية الخاصة»(٣٦).

وكلام الأستاذ رفعت سلام يجانبه الصواب - فيما أظن - فهو تعميم لشخوص الشرقاوي لايعتمد على منطق، إذ الفتى مهران بطل مسرحية الفتى مهران يفترق عن شخصية الحسين بن علي هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن شخصية الحسين وأعوانه من حيث الواقع التاريخي تختلف من حيث المدلول والمغزى عن شخصية الفتى مهران، والشخصيات الثانوية في مسرحية «الفتى مهران»، ومما لاشك فيه أن جماعة الحسين قد آمنت بمبدأ الحسين وفكرته فتبنت قضية صراع الحسين وصاروا وحدة واحدة متماسكة تجمعهم وشائج الإسلام ومقوماته، بل ينطبق عليهم جميعا ما ذكره العقاد من أنه «إذا بلغ أحدهم حده في معونته، فهو شهيد يبذل الدنيا كلها في سبيل الروح، إذا كانت الحرب بين جلادين وشهداء»(٣٧).

وقد حشدت المسرحية بجزأيها بمواقف كثيرة تبرز إيجابية أعوان الحسين، وإبداء آرائهم في أمور عدة لايتسع المقام لعرضها بالتفصيل.

ومما ساعد الشرقاوي في رسم شخوصه الإسلامية الثانوية رسمه الواضح لشخصيات الضد أو خصوم الحسين، وهم كثير أيضًا منهم (من أعوان يزيد):

أ - ابن زياد، فقد نجح الشرقاوي في رسم شخصية ابن زياد والى الكوفة بأن أثبت له عقدته من آل البيت، وهو دعي ابن دعي، وأمه مرجانة

الرومية، وتحدثنا كتب التاريخ الإسلامي[٣٨] عن عبيد الله بن زياد فتذكر أنه متهم النسب في قريش، لأن أباه زيادًا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد ابن أبيه، وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة، كانوا يعيرونه بها وينسبونه إليها.

ب - شمر بن ذي الجوشن، الذي أفصح الشرقاوي عن شخصيته فهو أبرص كريه المنظر، صوره الشرقاوي قاطع طريق سفاحا، وأبرز شخصيته ككلب يتبع سيده، ومن ثم رسم المؤلف صورته الشريرة، فهو طوال أحداث المسرحية مقود بل سباق إلى فعل الشر، ويتفق هذا وما ذكره العقاد عن شخصية شمر، إذ يقول: «فشمر بن ذي الجوشن أبرص كريه المنظر قبيح الصورة.. وكان ينسى الدين والحقد في حضرة المال»[٣٩].

جـ - مسلم بن عتبة، وقد أخذ البيعة ليزيد بن معاوية قسرًا، امتلأ قلبه بالحقد لآل البيت، وقد انطلق جند مسلم بن عقبة في المدينة إلى جوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم يخربون ويفسدون، وهو ممن سيطر عليهم الطمع في المناصب والأموال واللذات سيطرة كاملة.

د - عمر بن سعيد بن أبي وقاص، فقد كان أميرًا لجيش يزيد بن معاوية، وقد أطاع عبيد الله بن زياد في وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة، وكان بوسعه أن يعدل عن تلك النهاية، ومرد موقفه الغريب هذا - كما صوره الشرقاوي - هو طمعه في ملك الري هدية يزيد له إذا ما جاءه برأس الحسين بن علي!!!

هذا، وقد كان الشرقاوي موفقًا بتلك المقدمة التمهيدية لمسرحيته «الحسين ثائرًا» إذ أبرز في مونولوج افتتاحي جميل صورة لوحشي الأعرابي قاتل حمزة بن عبد المطلب عم الرسول عليه السلام، فعلى الرغم من أن وحشيًا وموقفه من حمزة يعد عنصرًا ثانويًا حيث إنه لايشترك في أحداث المسرحية، فإن هذا العنصر يعد رمزًا مساعدًا للدلالة على المضمون العام لمسرحية ثأر الله، فقد رسم الشرقاوي صورة لوحشي الأعرابي ذلك العجوز المتهالك، الذي أنهكه السكر والضنى

الطويل، يتخبط في الطريق وبين البيوت، ويسعى جاهدًا لخطاب الموجودين لكنهم يبتعدون عنه في تقزز منه، وتعد صورة أو شخصية وحشي الأعرابي رمزًا لتذكير الناس بمصير من خرج على آل البيت ووالي ابن هند(٤٠).

ومن اليسير ملاحظة سمات شخصيات خصوم الحسين، وفي مقدمتها: الحقد المتأجج في طبائعهم جميعًا والطمع الدنيوي الذي سيطر على نفوسهم وخربها وأفسد ذممهم، والخوف، والضعف والاستكانة والحسد، والسلبية، والنفاق، والغدر.. وغير ذلك. ولنكتف بهذا المثال الذي أورده الشرقاوي على لسان عمر ابن سعيد بن أبي وقاص، إذ أبرز الشرقاوي في رسمه لشخصية عمر غلظة الطبع، والحسد والحقد المتأجج لآل البيت على الرغم من أنهم صلة رحمه، والطمع الدنيوي الزائل، وأثبت الشرقاوي في أحداث مسرحيته الثانية «الحسين شهيدًا» ما انطوت عليه نفسه من حقد وتشف، فبعد مقتل الحسين بن علي نراه - كما تدل أحداث المسرحية - يسوق نساء الحسين وذريته إلى جثث القتلى المطروحة بالعراء، ولنقرأ هذا الحوار المسرحي بين عمر والحر بن يزيد الرياحي.

الحر: لما ظاهرت على أبناء أخوالك من هم غرباء؟

عمر: بما يمتاز علي عن أبي ليكون الأمر له؟

زيد: وبما يمتاز ابن هند عن أبيك؟

عمر: أن يكون الأمر في قبضة إنسان غريب هو أشفى للقلوب.
وسيبقى لي قدري دائما.

فهو يرغب أن يكون الأمر بعيدًا عن علي وأبنائه لا لشيء سوى الحقد والغيرة التي تملأ قلبه، ومن ذلك قوله للحسين،

عمر: سأصلي بعد أن أظفر بالري وجرجان وأبكي وأصلي فعسى يغفر لي.
ومما يدل على حسده للحسين قوله:

عمر: كل شيء في يديك
احترام الناس والإجفال منك.
الرضا والحب والنعمة لك.

وقلوب الناس والأحلام حولك.
ثم ميراث النبوة.
أي جاه بعد هذا أو مفاز.

وهكذا نجد الري وجرجان وطيب العيش والحقد والحسد.. وغير ذلك، كل هذه الأمور تحرم عمر بن سعيد الحنان والمودة للحسين، وقد نجح الشرقاوي في رسم شخصية عمر والكشف عن نوازعها وخلجاتها النفسية، فجعلها شخصية قلقة مضطربة متناقضة بين إدراكها لماهية الدين وجوهره وبين متطلباتها وحقدها وحسدها لشخصية البطل، وسيصلي عمر بعد أن يظفر بما يبغى وعسى ربه يغفر له.. وهكذا صنع الشرقاوي مع بقية أعوان يزيد، وهكذا يكون قد نجح في أن «جعل الخير معادلاً لحرية الكلمة وللشجاعة في قول الحق، وللتسامي بتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بمعنى آخر بدا الخير هو الخير المألوف في القرآن الكريم والسنة، وكان الشر للمراء والكذب والخذلان والطلب على الدنيا ونسيان حسن ثواب الآخرة»[٤١] الأمر الذي يمكن الباحث من القول بأن مضمون النص المسرحي عند الشرقاوي في «ثأر الله» يحمل إلى جانب دعوى التغيير وتصحيح المسارات الخاطئة في واقعنا المعاصر، مصطلحات ومفاهيم وقيمًا أخلاقية مستمدة من روح الدين الإسلامي وجوهره الحنيف.

وقبل أن أختتم حديثي عن شخصيات الشرقاوي في ثنائيته المسرحية (الحسين ثائرًا، والحسين شهيدًا) بقي أن أشير إلى أن ثمة شخصيات متأرجحة في موقفها فهي بين بين كما يقول، أو كما أطلق عليها أحد الدارسين[٤٢] الشخصيات المتورطة، التي رسمها الشرقاوي لتسير في ركاب ابن زياد وأعوانه، وقد كان من المتوقع أن تقف مع الحسين لاضده مثل شخصية «أسد» الذي نعرف من أحداث المسرحية أنه جاهد في جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى الرغم من ذلك يطلب من الحسين مبايعة يزيد حقنًا لدماء المسلمين، وقد سبق أن أشرت إلى حوار مع الحسين، وعندما سأله الحسين إذا كان يحب يزيد أم لا؟ تلعثم واضطرب في إجابته وأجاب بأن المصلحة العليا قد تلزمنا بما يرفضه

القلب، فهو من ثم يرفض يزيد بقلبه ويرضاه بعقله، ولذلك صار «أسد» بوقًا مدويًا لابن زياد يطلب من أهل الكوفة تسليم «مسلم بن عقيل» استجابة للأصوات العالية التي تقول:

من لم يساعدنا ويرشدنا، ويجعل من نفسه عينا لنا.

يصلب على باب المدينة.

من خاننا هتكت نساؤه.

من صار جاسوسا لنا نال الذي يرجوه منا.(٤٣)

وقد أظهر السطر الشعري الأخير معدن الرجال وتقلباتهم في عهد يزيد، فقد قهر الناس بسلطانه وماله، فتحول أسد - بعد أن كان تقيًا ومحاربًا في كثير من الغزوات في جيش الرسول وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه - إلى أداة مساعدة لابن زياد في آرائه وميوله.

وتمثل شخصية «الحر بن يزيد الرياحي» الشخصية المفهومة التورط إذ إنه شخصية متأرجحة كذلك، لكنه في نهاية المطاف استيقظ من غفلته، وأدرك أن الأمور الدنيوية والأطماع فيها حطام زائل لا محالة، فنراه وقد تحول إلى الحسين ابن علي بعد أن كان من أنصار يزيد وساعد في إنزال الحسين إلى كربلاء التي تخلو من الحصون والماء وذلك بعدما توفرت له الأدلة القاطعة والحجج الدامغة أن إراقة دماء أبناء الأنبياء إثم وجريمة، فصار واحدًا من أتباع الحسين قاتل معه وقتل في الذود عنه، ولنقرأ المنظر الأول من «الحسين شهيدًا» إذ تعرب نهايته عن موقف الحر الرياحي، ومعرفته بقدر سبط النبي صلى الله عليه وسلم وآل البيت، يقول للحسين:

الحر: (في أزمة) أأنا روعت أبناء رسول الله مني..؟
أسأل الله تعالى المغفرة
للحسين.. إنني أطلب منك المعذرة(٤٤).

وعندما يسأله الحسين: .. فلماذا أيها الحر تعاديني بربك؟ يجيب:

الحر: أنا مقهور على أن أقهرك.

الحسين: فعزائي بعض ما لاقاه جدي من عناء وشقاء.

الحر: (خاشعا) نعم العزاء.

الحسين: ولهذا قال جدي أنت مني ياحسين.

الحر: قد سمعنا أنه صلى عليه الله قال:

برير: (يكمل) قال: لاتؤذوا الحسين بن علي، فهو ابني أنا منه وهو مني.. إنه قرة عيني.

ينتهي المنظر الأول من مسرحية «الحسين شهيدًا» بقول:

الحر: قد سألت الله ألا أبتلى يومًا بأمر الحسين(٤٥).

* * *

هذا مثل من أمثلة كثيرة تحتشد بها المسرحية «الحسين شهيدًا» عرضت له بهدف التدليل على أن الشرقاوي قد رسم شخصية الحر الرياحي وجعلها متورطة مفهومة التورط لكنها تعرف قدر سبط النبي عليه الصلاة والسلام، الأمر الذي جعله يعدل في النهاية عن موقفه بدلاً من التذبذب فيتحول إلى جيش الحسين ويقتل في الذود عنه، فقد اقتنع بهدف الحسين من الخروج للكوفة والذي أوضحه الشرقاوي بما أورده على لسان الحسين:

الحسين: لم أخرج أشرا أو بطرا.
لم أخرج أفسد أو أظلم.
لم أخرج أطلب مملكة.
لكن كي ألقى موعظة.
ولكي أنهى عن منكر.
ولكي أصلح من حولي.
ولألقي نورا في الليل.

يا أهل الكوفة أنا ذا أقبل.[٤٦]

وهكذا، تختلف شخصية الحر الرياحي المسرحية عن بقية شخصيات أعوان يزيد بن معاوية إذ لم تحركه أصابع يزيد بن معاوية، وابن زياد، ولم تختف خلف تحركاته كما اختفت بقية الشخوص التي سبق أن أشرت إليها.

ويطيب لي أن أسجل - في ختام حديثي عن الشرقاوي - الملحوظات التالية لأهميتها:

أولا: التزام الشرقاوي بالأسلوب الشعري في مسرحيته «ثأر الله بجزأيها»، لأن الصلة بين الشعر والمأساة التي تتحدث عنها المسرحية صلة وثيقة، وأهم شيء يجذب انتباهنا في مأساة الحسين الانفعالات النفسية التي تصورها، والشعر مما لاشك فيه من أصدق الأساليب وأقواها للتعبير عن هذه الانفعالات.

ثانيًا: اتساع المكان ودلالته، والملحوظة الثانية هي اتساع المكان، إذ مكان مسرحية «الحسين ثائرًا» هو الحجاز والكوفة، وبادية بجنوب العراق، ومكان مسرحية «الحسين شهيدا»، بادية في العراق، كربلاء، دمشق بادية بالشام[٤٧]، هذا الاتساع يذكرنا بأنه إذا لم يتصدَّ الناس لدفع الجور عنهم، والوقوف ضده دون أدنى مهادنة، فإن نفوذ الظلمة والطغاة سيشمل كل الأماكن على الرغم من تباعدها.

ثالثًا: لم يبتكر الشرقاوي جديدًا فيما يتعلق بوصفه لصورة القتل يوم كربلاء، ولا في عُقْدته وحلِّه، وربما مرد ذلك كله إلى أن الشرقاوي التزم في معظم أحداثه المسرحية بالواقع التاريخي للمأساة نفسها كما هو معروف في كتب التاريخ الإسلامي، كطبقات ابن سعد الجزء الخامس، أو البداية والنهاية لابن كثير الجزء السابع.. وغير ذلك ، الأمر الذي جعل الحقيقة التاريخية نصب عين الكاتب، فلم يبتدع من ثم قصصًا جديدة، ولم يضف روايات من عنده، ولذا جاء شكل المسرحية تسجيليا إلى حد كبير.

رابعًا: تعد المسرحية من حيث مضمونها الاجتماعي نقطة انطلاق جديدة لمسرحنا المصري المعاصر، إذ طرح الشرقاوي من خلالها قضايا واقعنا المعاصر المتردي طارحًا أسئلة عديدة تتصل بالسلطة والحكم والعدل والحرية والالتزام.. إلى غير

ذلك، ولذا كانت صورة الحسين بعد قتله في الجزء الأخير من مسرحية «الحسين شهيدًا» وكأنها لسان حال الشرقاوي، «فعلى الرغم من استشهاد الحسين تاريخيا فإن الشرقاوي أراد له أن يحيا بمبادئه بين الناس، فجعل صوته خاتم هذه المسرحية ليكون آخر ما تبقى بعد فناء الجسم تأكيدًا لبقاء القيم حتى لو طاردت السلطة الغاشمة صاحب القيم دنيويًا وقتلت منه الجسد، فلن تستطيع الهروب من مقاومة صوت العدل المدوي لها»(٤٨).

خامسًا: الشعر المسرحي أكثر ضرورة إلى الحرية الموسيقية، لتوائم الإيقاع النفسي في الدلالة على الشخصية، وبيان تعاريجها النفسية، وتموجات الأحداث ويؤثر ذلك كله في البناء المسرحي العام.

وثمة ظواهر موسيقية تطورية لافتة للنظر في مسرح الشرقاوي، والحق، أقول إن الشرقاوي ليس بدعًا في الدعوة إلى تلك المحاولات التطورية، فقد سُبق بمحاولات متعددة تدعو إلى التجديد فيما ورثناه من تفاعيل الخليل ت ١٧٠هـ العروضية، فمنذ العصر العباسي والدعوات مستمرة، وآية ذلك أن الجاهليين لم يعرفوا بحر المقتضب (مفعلات مستفعلن) وقد تبنى العباسيون هذا البحر واغترفوا منه رغبة في وفرة موسيقية جديدة، ثم تتابعت بعد ذلك حركات التجديد، فظهرت المواليا، والدوبيت والقوما والمسمطات. . . وسواها مما لايتسع المجال هنا لتفصيله.

ونرجيء الحديث عن محاولات الشرقاوي التطورية للنغمة الموسيقية لدراسة مستقلة عما قريب إن شاء الله، تشمل جُلَّ أعماله المسرحية الشعرية للحكم بماله وما عليه إيثارًا للموضوعية العلمية حتى لايُظَن بنا سوء في الوقوف على بعض الأعمال دون غيرها.

وبهذا، يكون الشرقاوي قد صور خلود القيم والمبادىء، فقدم رأيًا جديدًا نحن في أمس الحاجة إليه من خلال مشكلة تاريخية قديمة استلهمها في مسرحه ووظفها توظيفًا عصريًا واعيًا بأبعادها الواقعية وقيمتها المعنوية.

وأختتم حديثي بصوت الحسين مدويًا في آخر مسرحية «الحسين شهيدًا» يقول:

الحسين: فلتذكروني لا بسفككم دماء الآخرين.
بل فاذكروني بانتشال الحق من ظفر الضلال.
بل فاذكروني بالنضال على الطريق.
لكي يسود العدل فيما بينكم
فلتذكروني بالنضال
فلتذكروني عندما تغدو الحقيقة وحدها
حيرى حزينة.
فإذا بأسوار المدينة لاتصون حمى المدينة.
لكنها تحمي الأمير وأهله والتابعينه.
فلتذكروني عندما تجد الفضائل نفسها
أضحت غريبة.
وإذا الرذائل أصبحت هي وحدها الفضلى الحبيبة
وإذا حكمتم من قصور الغانيات
ومن مقاصير الجواري.
. . . . . .
فلتذكروني حين تختلط الشجاعة بالحماقة
وإذا المنافع والمكاسب صرن ميزان الصداقة.
فلتذكروني حين يختلط المزيف بالشريف
فلتذكروني حين تشتبه الحقيقة بالخيال.
وإذا غدا جبن الخنوع علامة الرجل الحصيف.
فلتذكروني حين يستقوي الوضيع.
وإذا تحكم فاسقوكم في مصير المؤمنين.

وإذا شكا الفقراء واكتظت جيوب الأغنياء
فلتذكروني عندما يفتي الجهول
فلتذكروني إن رأيتم حاكميكم يكذبون.
ويغدرون ويفتكون.
والأقوياء ينافقون.
فلتذكروا ثأري العظيم لتأخذوه من الطغاة
وبذاك تنتصر الحقيقة.
فإذا سكتم بعد ذاك على الخديعة وارتضى الإنسان ذُله
فأنا سأذبح من جديد.
وأظل أقتل كل يوم ألف قتلة.
سأظل أقتل كلما سكت الغيور وكلما أغفى الصبور.
سأظل أقتل كلما رغمت أنوف في المذلة.
ويظل يحكمكم يزيد ما... ويفعل مايريد.
وولاته يستعبدونكم وهم شر العبيد.
ويظل يلعنكم وإن طال المدى جرح الشهيد.
لأنكم لم تدركوا ثأر الشهيد.
فأدركوا ثأر الشهيد[٤٩].

وهكذا نلحظ أن صوت الحسين المدوي في آخر مسرحية الشرقاوي «الحسين شهيدًا» هو لسان حال المؤلف شخصيًا، إذ لم يهتم الشرقاوي على الإطلاق بالفساد الذي استشرى في عهد يزيد بن معاوية قدر اهتمامه بتنبيه أذهاننا نحن إلى هؤلاء الذين تسببوا في هذا الظلم وذلك الفساد، إذ ليست العبرة في قتل الحسين بن علي - بطل المسرحية ورمز الحق المدوي بيننا - بل تكمن العبرة فيمن قتل الحسين ولماذا قتل؟

الهوامش والمراجع

(١) تمثل مسرحية الشرقاوي «ثأر الله» عمله الإبداعي الثالث، فقد سبقت بمسرحيتين هما: « مأساة جميلة» التي نشرت سنة ١٩٦٢م، و«الفتى مهران» التي نشرت سنة ١٩٦٦م، أما مسرحيته التي نحن بصددها فقد نشرت سنة ١٩٦٩م، وظهرت مسرحيته الرابعة «وطني عكا» سنة ١٩٧٠م، وأما عمله الإبداعي الخامس والأخير المسمى « صلاح الدين النسر الأحمر» فقد نشر سنة ١٩٧٦م، وقسمه إلى مسرحيتين؛ الأولى «النسر والغربان»، والثانية «النسر وقلب الأسد».

(٢) عبد الرحمن الشرقاوي «ثأر الله» صفحة الإهداء، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م.

(٣) أحمد أمين «يوم الإسلام» ص ٦٧، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٢م.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٦٧، ٦٨ وحري بالذكر أن أبا الفرج الأصفهاني قد ألف كتابًا أسماه « مقاتل الطالبيين» جمع فيه أسماء من قتلوا من الشيعة إلى سنة ٣٥٦ هـ، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة ١٩٤٩م.

(٥) عباس العقاد «الحسين أبو الشهداء» ص ٥ من المقدمة، دار الهلال، القاهرة، دون تاريخ، وانظر: عبدالله العلايلي «أيام الحسين» ص ٣ وما بعدها، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٨م.

(٦) السابق نفسه، ص ٦.

(٧) أحمد أمين «مرجع سابق»، ص ١٢٧.

(٨) وثمة ملاحظة يبديها كاتب هذه السطور فيما يتصل بكلام المرحوم أحمد أمين الخاص بالحديث النبوي الشهير، إذ بالعودة إلى تخريج الحديث من مصادر ثقات وجدت أن رواية الحديث كما يلي «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . . . »أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم - باب في تداعى الأمم على الإسلام - حديث رقم ٤٢٩٧، وأخرجه الإمام أحمد في المسند جـ ٥ ص ٢٧٨، دار المعارف - القاهرة. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، عيسى البابي الحلبي وشركاءه - القاهرة، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر.

(٩) أحمد أمين «ضحى الإسلام» جـ٣/ ٣٠٠، ٣٠١، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٧٨م.

(١٠) السابق نفسه، جـ٣/ ٣٠٠، ٣١٥.

(١١) عولجت مأساة الحسين في الأدب الفارسي من خلال نصوص سميت بـ «التعازي»، وهي ثلاثة نصوص رئيسة، الأول يسمى «جونغ - ي - شيهادات» أي نشيد الشهيد والنص الثاني يحمل عنوان «كتاب لتين» ويحتوي على خمسة عشر مشهدا مقدمة بشكل نقل فوتوغرافي لمخطوط عراقي مع مقدمة مختصرة، وأما النص الثالث فهو «كتاب لويس» الذي نشره بالإنجليزية من قبل كولونيل إنجليزي هو السير لويس بيللي، ويحمل عنوان مسرحية «الحسن والحسين المعجزة»، ويحتوي على ترجمة لسبع وثلاثين مسرحية فقد نصها الأصلي من حينها.

ومهما يكن من أمر فإن القارئ للمسرحية في نصوصها الفارسية يلحظ أنها قد أفلتت - في أحيان كثيرة - من الحقائق التاريخية، ومن أمثلة ذلك الحوار الدائر بين الحسين بن علي ويعقوب عليهما السلام لمعرفة

من منهما في الدنيا تعذب أكثر، ويحسم جبريل عليه السلام النزاع والجدل بينهما لصالح الحسين بن علي ... وسوى ذلك مما يضيق المجال بتفصيله، فضلًا عن أنه ليس من غايتي في هذا البحث.

لمزيد من التفصيل، انظر: د. محمد عزيزة «الإسلام والمسرح» ص ٨٦ ترجمة د. رفيق الصبان، المكتبة الثقافية (رقم ٤٥٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م، وكذلك: د. أحمد شمس الدين الحجاجي «العصور الإسلامية والمسرح» ص ٣٩ الفصل الثاني بخاتمته، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م، وانظر: محمد كمال الدين «العرب والمسرح» ص ١٤٤ كتاب الهلال، العدد ٢٩٤ سنة ١٩٧٥م.

(١٢) كمال محمد إسماعيل «الشعر المسرحي في الأدب المصري المعاصر» ص ١٠٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م، وانظر أيضًا: د. علي عشري زايد «استخدام الشخصية التراثية في الشعر العربي المعاصر»، ص ٢٨٨ وما بعدها، منشورات ليبيا ١٩٧٨م.

(١٣) انظر: مقاله المعنون بـ «توظيف التراث في المسرح» مج فصول، ص ١٧٤، العدد الأول السنة الأولى ١٩٨٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(١٤) الشرقاوي «الحسين ثائرًا» مرجع سابق، النص المسرحي ص ٣١.

(١٥) السابق نفسه، ص ٣٢.

(١٦) السابق نفسه، النص المسرحي، ص ٣٧، ٣٨.

(١٧) السابق نفسه، ص ٤١، ٤٩.

(١٨) السابق نفسه، ص ٤٠، واقرأ ما كتبه عن صفات الحسين، السابق نفسه.

(١٩) العقاد «مرجع سابق» ص ١٦، ص ٤٢، ٤٦.

(٢٠) الشرقاوي «الحسين شهيدًا» ص ١٦٥، وحري بالذكر أن وضع أسطر شعرية بين أقواس تشير إلى أنها أشعار مضمنة لغير الشرقاوي، كالأبيات السالفة، ومنها ما ضمنه الشرقاوي من أبيات منسوبة للحسين ابن علي ص ١٢١ من النص المسرحي «الحسين شهيدًا» يقول فيها:

(سأمضي وما بالموت عار على الفتى)

(إذا ما نوى حقًا وجاهد مسلما)

(وداس الرجال الصالحين بنفسه)

(وفارق مثبورًا وخالف مجرمًا)

وهذا النوع من التضمين أشار إليه ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة جـ٢/ ٨٤ بأنها «قصدك إلى البيت من الشعر أو القسم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل»، ومنه « ما يحيل الشاعر فيه إحالة، ويشير به إشارة» ٢/ ٨٨ فيأتي به كأنه نظم الأخبار أو شبيه به. انظر الأمثلة التي أوردها جـ٢/ ٨٤ - ٨٩ - ط ٥ سنة ١٩٨١م.

والتضمين ظاهرة بلاغية معروفة معناها « أن يضمن المتكلم كلامه لفظة من بيت أو جملة مفيدة منه، أو جزءا عروضيا، أو ما زاد على ذلك، بشرط ألا يبلغ المقدار المضمن نصف بيت يشير إلى ذلك البيت، أو إلى القصيدة التي البيت منها، وإن كان التضمين من المنثور كان المضمن مشيرا إلى الكلام الذي هو منه سواء كان سورة أو حديثًا أو خطبة أو رسالة. انظر السابق ص ٥٢، نهضة مصر - القاهرة دون تاريخ،

تحقيق حفني محمد شرف. وقد عالج الجاحظ هذا المبحث في البيان والتبين تحت اسم الاقتباس والتضمين ٢/٦، وانظر: بديع ابن المعتز ص ١١٤، والنكت في إعجاز القرآن ص ٩٤، وبديع ابن النقذ ١٢١، ونهاية الأرب ٧/١٢٦... وسواها.

(٢١) الحسين شهيدًا، مرجع سابق، ص ٢٦، واقرأ المنظر الثاني إذ يعرض فيه بشيء من التفصيل لمأساة العطش.

(٢٢) الحسين ثائرًا، ص ٣٠.

(٢٣) راجع الحوار المسرحي بين الحسين ومروان بن الحكم، السابق نفسه، ص ٣٣، ٣٤.

(٢٤) الحسين ثائرًا، النص المسرحي، ص ٥٩، ٦٠، مرجع سابق.

(٢٥) العقاد، ص ٥٤ مرجع سابق، واقرأ تحليله النفسي القيم لرجال المعسكرين ص ٥٤ - ٦٠ السابق نفسه.

(٢٦) الحسين ثائرًا، ص ٨٢.

(٢٧) السابق نفسه، ص ١٤٤.

(٢٨) السابق نفسه، ص ١٤٦.

(٢٩) السابق نفسه، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٣٠) د. سامي منير عامر «المسرح المصري بعد الحرب العالمية الثانية من سنة ١٩٤٥م - ١٩٧٠م بين الفن والنقد السياسي والاجتماعي»، ص ٣٩٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م. وانظر أيضًا: مجلة المسرح، إبريل ١٩٦٩م، ص ٣٣ وما بعدها، مقال لفاروق عبدالوهاب عنوانه «الحسين ثائرًا وشهيدًا».

(٣١) الحسين ثائرًا، ص ٩٠ - ٩٢.

(٣٢) السابق نفسه، ص ١٥٩.

(٣٣) رفعت سلام «المسرح الشعري العربي» ص ٨٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

(٣٤) كمال محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٣٥) راجع على سبيل المثال ما ورد على لسان محمد بن الحنفية «الحسين ثائرًا» ص ٧٠، واقرأ أقوال زينب، والسابق نفسه ص ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٢، واقرأ سعيد وزينب ص ١٠٥، ١٠٧، ومحمد بن جعفر ص ١٠٧، واقرأ حوار زينب وعمر بن سعد «الحسين شهيدًا» ص ٣٥، وحوارها ويزيد بن معاوية، السابق نفسه، ص ١٦٠، ١٦٢، ١٦٥... الخ، ويمكننا من تتبع الصيغ الأسلوبية للجمل الحوارية استنباط جملة السمات المشار إليها آنفا.

(٣٦) رفعت سلام، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٣٧) السابق نفسه، ص ٨٨.

(٣٨) العقاد، مرجع سابق، ص ٥٩.

(٣٩) ابن كثير «البداية والنهاية» تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ سنة ١٩٨٥م، جـ٧، ص ١٧.

(٤٠) العقاد، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٤١) لمزيد من التفصيل، اقرأ النص المسرحي «الحسين ثائرًا» ص ١٥، ١٦، ١٧.

(٤٢) كمال إسماعيل، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٤٣) السابق نفسه، ص ١٣٧، وعلاء الدين مسرحيات «الوهج والظل» ص ١٤، كتاب الهلال، يونيو ١٩٧٦م.

(٤٤) المنظر الثاني من النص المسرحي «الحسين ثائرًا» ص ١٢٤.

(٤٥) الحسين شهيدًا، مرجع سابق، ص ١٧.

(٤٦) السابق نفسه، ص ٢١، ٢٢.

(٤٧) الحسين ثائرًا، ص ١٤١.

(٤٨) راجع صفحة شخصيات المسرحية. الخاتمة.

(٤٩) د. سامي منير، ص ٣٧٧، مرجع سابق.

(٥٠) الحسين شهيدًا، صفحات ١٨٦ - ١٨٩.

* * *

اقرأ
في العدد القادم
الشاعر والموت
قراءة في مطوّلة الهمشري
«شاطئ الأعراف»
د. عبدالله أحمد المهنا